فصول ملخصة فى الفلسفة الالمانية

١٣ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

ونظرة واحدة الى المواد التى شاء أن يلم بها ترينا ما بذل صاحبها من قلبه وعقله فى التحليل والاستقراء ، معالجاً الأدب اليونانى وتاريخ اليونانية القديمة ، والفصاحة اليونانية وتاريخ الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون . وبعض نظرات عميقة ينفذ بها الى بعض فلاسفة أو شعراء . وقد قدر بنفسه أنه منجز خلال سبعة أعوام أو ثمانية درس كل ما يتعلق ببراعة اليونان . وأقدم على المفاداة بعشر سنوات من عمره ليكمل درس المسألة اليونانية من جميع وجوهها ، ولكن – ويا للأسف – ظلت هذه الأفكار صوراً مقتضبة ومقاطيع صغيرة غير كاملة . لأن صحته المختلة حالت بينه وبين تقديم ما ينبغي له لمثل هذا الأمر ، فانثنى عن عمله هذا ، ولكن الصور التى تركها تكاد لا تخفى عنا الفكرة العامة التى أراد نيتشه أن يصورها وينشرها

يعتقد نيتشه بما اعتقد به معلمه « شوبنهاور » بأن جوهر الوجود هو الارادة ، وهذه الارادة واحدة عند كل الكائنات ، وهى تتجلى بثباتها وقوتها فى جثمان الخليقة ؛ على أن هذه الارادة هى شقية تفتقر الى الرحمة لأنها تثابر على الجهاد والمقاومة فى هذا الوجود ، وهى موقنة عالمة أن نتيجة المعركة عليها لا لها . « وهل الحياة إلا أن تريد شيئاً بدون سبب ، وأن تتألم دائماً ، ثم لا ينتهى الألم إلا بالموت . . . وهكذا تقابل الحياة الأحياء حتى يتفطر الكون ويعمر فساده » . إن الوجود فى نظر العقل غير كامل ، لأن نواقصه كثيرة ، وعنصر الألم فيه غالب على السعادة والراحة ، وبهذا يقضى على العقل أن يطوى الارادة على نفسها ويسحقها من وجوده ، واذا انعدمت الارادة انعدم الوجود نفسه ، لأن الوجود ما هو إلا الارادة الفعالة . ولكن نيتشه لا يذهب الى هذه النتيجة التى أدركها شوبنهاور . فالوجود الذى لا يكمل فى نظر العقل – عند شوبنهاور – فانه يكمل كأثر فني يحمل الى صاحبه الغبطة الفنية . وفى مثل هذا الافتراض الذى يفترضه نيتشه يرى من واجب كل انسان أن يستنفد وسعه ويبذل جهده فى امتلاك نصيبه من هذا الجمال ، باحتوائه على ما فى نفسه من معنى الجمال ، وبتأمله للوجود ولنفسه بعين الجمال

إننا فى ساعة الابداع الفنى نشعر بغبطة لا تحد ولا تحس إذ هى غبطة المبدع . وإذا كان الانسان فى هذه الحياة فرداً قائماً بذاته ، يحيا فى عالم المادة ، فهو فنان بطبيعة خياله المبدع الوثاب . يستطيع أن يبدع إبداع من يخلق ويصور – إن كان فناناً مبدعاً ، ويقدر أن يكون مبدعاً فى تفكره فى الأثر الفني الذي يبعث فى نفسه خياله الباطني ، لأنه يشاطر المبدع فنه ويتحد معه فى تحليقه . وهو فى كلتا الحالتين متخيل صوراً وألواناً جديدة تبعث فيه الغبطة الفنية ، ولا يضير هذه الصور أن تكون أخيلة أو أحلاماً ، لأن أجزاءها مقتبسة من الوجود ، ولا ينبغى لهذه الصور أن تكون صوراً ضاحكة تملأ الجو أفراحاً ، فقد تكون صوراً تملأ الأفئدة ذعراً والنفوس شقاء ، وتكون بعد ذلك كله جميلة . . .

هذه الخاصة العاملة على إبداع الصور والأوهام ، وتغليب الناحية الخيالية على الناحية الحقيقية يدعوها نيتشه « الخاصة الأبولونية » : نسبة الى « أبولون[1] » ، والفن الأبولونى عنده هو النحت والتصوير والشعر القصصى . إن الرجل الأبولونى يستنقذ نفسه من التشاؤم باستسلامه للجمال . يقول للحياة : أنا أريدك ، لأن صورتك جميلة ، يجدر بها أن تكون مادة للحلم والخيال . . .

(١) إله الشعر والوسيقى

يا دار أنت رجاء مصرَ وفى سوى نادبك ليست تبلغ الأوطار
لن يستقيم لآل مصرَ بناؤهم يوماً وركنك ينهم منهار
مادام ربعك موحشاً قفراً فلن يلتأم شمل أو يعز ذمار
يبقى بغيرك أمرهم فوضى به يلهو اللئام ويعبث الأغرار
لو يعلمون سعوا إليك ومسَّحوا إما سعى للكعبة الزوار
حتى يعودَ الحقُّ فيك لحضنه ويعزَّ فيك ذمارهم يا دار

فخرى أبو السعود

ولكن الانسان ليس بكائن يمكن تحديده بالذاتيـة ، أو بالانفصال ، فهو كائن يشعر بنفسه كارادة متفوقة ، ويحس أنه قطعة من هذه الارادة التوزعة في الوجود كله ، ويدرك أنه متحد مع كل ما يحيا وما يتألم ، تام الاتحاد مع الوجود . والانسان - في حالة ذهول أو سكر ناشىء عن مادة مخدرة ، أو إزاء حوادث طبيعية كعودة الربيع - يشعر بأن هـذا الحاجز الذاتي الذي يفصله عن الوجود قد وهى وزال ، ويجد نفسه متحدة مع الطبيعة كلها ، وهذا الطور ما يدعوه نيتشه « الطور الديونيزوسي » ، نسبة الى الاله « ديونيزوس[1] » ولغة الرجل الديونيزوسي هي الوسيقى التي يعتبرها شوبنهاور لغة الارادة الخالدة بل صورة الرغبة الدائمة المستترة في باطن الوجود ، والانسان - في هذا الطور - يحس بالألم الشامل والوهم الباطل وشقاء الفردية ، فيكاد يجنح الى التشاؤم ، ولكنه يهتز قليلاً ويشعر بخلوده ويدرك أن ارادته المفصولة إنما هي جزء من ارادة الوجود ، فتراه حيال كل مظهر من مظاهر الفناء ، أو مصرع بطل من الأبطال ، تراه يشعر بأن حياة الارادة الباقية لم تطفأ بموت البطل . إن الرجل الديونيزوسي ينقذ نفسه من التشاؤم لأنه يبصر خلود الارادة ، والحادثات تمر والتقلبات تستمر ؛ هو يقول للحياة : أنا أريدك ! لأنك أنت الحياة الخالدة

وبهذين المذهبين يرى نيتشه أن اليونان قد قهروا التشاؤم ، وجعلوا الحياة جميلة زاهية ؛ ويرى أن التفاؤل اليوناني لم يكن وليد الخفة والعبث ، أو تجاهل لما يغمر الوجود من شقاء وألم ، ولكنه تفاؤل تولد من مثل أعلى وغاية أسمى ؛ والمؤرخ الذي يستقرئ هذه التأثيرات في مطلع تاريخهم يتبين له أن القوم عرفوا الألم كما عرفناه ؛ وتذوقوا الشقاء كما تذوقناه

سأل ملك « ميدا » الفيلسوف « سيلين » ماعساك تجد خير شيء للانسان ؟ فأجاب الفيلسوف : « يا ذرية التعس والألم ، وأبناء المصادفات والمتاعب ! لماذا تنقمون على إذا جئتكم بما لا ارتياح له آذانكم ؟ إن الخير الذي لا خير بعده هو ألا تكون - أيها الانسان - مولوداً ، وألا تكون موجوداً ، وألا تصير شيئاً ؛ والخير العاجل لك أن تلاقي مصرعك الآن ! » فهذا الألم المنبعث من أعماق الروح الشاعرة بالأوجاع والشقاء العاصف الأرض ، هو الذي أهاب باليونان ودعاهم إلى أن يكملوا معنى الحياة الناقصة بخلقهم آلهة هي آلهة جبال « أولمبوس » ، هذه الآلهة هي نتيجة إبداع الروح « الأبولونية » وانتصارها . أرادوا أن يستنقذوا أرواحهم من حقيقة الوجود المروعة فعمدوا الى خلق شعب من الآلهة وجملة أوهام طبقوها على الحياة التي يرونها صالحة للظهور ؛ وهم مؤمنون بأن هذه الآلهة تعمل معهم على مجابهة التشاؤم . وهكذا لبست الحياة عندهم لباساً جديداً ، وظهرت ظهوراً جديداً ، وغدت جميلة في عيونهم لأن آلهة جميلة تتصرف بها وتقبل بأقدارها ؛ وهوميروس هو المثل الأعلى للروح الأبولونيـة ؛ ومقاطيعه وقصائده هي نشيد انتصار الحضارة اليونانية على سيئات الأجيال الغابرة ، وهي التي خلقت هذه الروح التي تغلب اليونان بأوهامها وأخيلتها على كآبة الحياة الحقيقية وقبحها . وإزاء هذه البراعة الأبولونية نشأت البراعة « الديونيزوسية » أو براعة المأساة ؟

« يتبع » خليل هنداوي

(١) إله الخمرة عند اليونان ، وهو « باخوس » عند الرومان